نهج الإصلاح

قراءة في الخطاب الإصلاحي للإمام الحسين عليه السلام

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

***

* دار الإمام الحسين عليه السلام للبحوث والدراسات *
* رئيس التحرير: الشيخ عمار المنصور *
للتواصل: daral_hussein@gawab.com

***

* الكتاب: نهج الإصلاح.. قراءة في الخطاب الإصلاحي للإمام الحسين عليه السلام
* المؤلف: السيد محمود الموسوي
* الناشر: دار الإمام الحسين عليه السلام للبحوث والدراسات.
* سنة النشر: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

نهج الإصلاح

قراءة في الخطاب الإصلاحي للإمام الحسين عليه السلام

السيد محمود الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيّ أسوة.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطبيين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

مرت الأمة الإسلامية بانعطافات خطيرة أدت في كثير من الأحيان إلى تشويه معالم الدين والنيل من رموزه. لكن المؤرخين يجمعون على أن التحول الأخطر في حياة هذه الأمة كان بتحول أمر الأمة وزمامها إلى ملك عضوض فنزا بنو أمية على كرسي الخلافة والقيادة، الأمر الذي عبّر عنه نبي الله ﷺ بهلاك الأمة[1].

(١) صحيح البخاري، ج٩، ص٤٧، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «هلاك أمتي...»: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عمرو بن يحيى ابن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرني جدي، قال: كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي ﷺ بالمدينة ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلاك أمتي على يدي غلمةٍ من قريش»، فقال مروان: «لعنة الله عليهم غلمة» فقال أبو هريرة: «لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت»، فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا الشام، فإذا رآهم غلماناً أحداثاً، قال لنا: «عسى هؤلاء أن يكونوا منهم». قلنا: «أنت أعلم».

من هنا فإن دراسة تراث الإمام الحسين عليه السلام الذي عاصر هذه الانعطافة الكبرى تكتسب أهمية من زاويتين:

الأولى:إنها تمثل كلمة للوحي المعصوم يطل من خلالها المسلم على شريعة الله ورسالته، باعتبار الإمام الحسين عليه السلام من الذين قال فيهم عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، ومن الذين قرنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالكتاب «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[1].

فتراث الإمام الحسين عليه السلام، (من خطب وكلمات ورسائل وأدعية)، يمثل في الدرجة الأولى بصيرة الوحي وهدى الرسالة.

الثانية: إن تراث الإمام الحسين عليه السلام يعبر لنا عن حجم الانتكاسة وواقع الدمار الذي أصاب الأمة في تلك المرحلة، فهو لا يكتفي بتصوير ذلك الواقع بل يدفع المسلم لتبني موقف الإسلام اتجاه تلك الأحداث.

ذلك أنه على الرغم من إجماع الأمة على سوداوية تلك المرحلة التي تربع فيها بنو أمية على الحكم، إلا أن المواقف اختلفت إلى درجة أنها وصلت في بعض الأحيان إلى مستوى القطيعة.

وأدى هذا الاختلاف في طبيعة المواقف إلى نشوء الإرباك على المستوى الجماهيري، وعاد هذا الإرباك ليشكل لنا رؤية لا تمت للإسلام بصلة، فعطلت تلك الرؤية التي أجمعت الأمة على

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢، ص٢٨٥.

صوابها تجاه الانعطافة الماساوية التي رافقت مسيرة هذه الأمة، فانبرت طائفة من المسلمين تأصل وتشرعن للناس طبيعة التعاطي مع من ارتهن الأمة وأذلها وساقها إلى حكم الجاهلية وقيمها.

فهذا عبدالله بن عمر يعترض على أهل المدينة ويحذرهم الخروج على يزيد: جاء عبدالله بن عمر إلى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر (الحرة) ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال عبدالله بن مطيع اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من خلع يداً من طاعة لقي الله عز وجل يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية**»[1].

وتطور هذا الفكر بعد ذلك حتى تحول إلى تيار الأمة الأعرض.

يقول سفيان الثوري لأحد تلامذته -واسمه شعيب-: «يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد إلى يوم القيامة والصبر تحت لواء السلطان جار أم عدل»[2].

من هنا نعرف أهمية دراسة تراث الإمام الحسين عليه السلام فهو بالإضافة إلى أنه يعبر عن كلمة الوحي، فإنه يصور لنا طبيعة

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢٩، ص٣٣٢.
(٢) الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٠٧.

المرحلة التي أسست للكثير من المقولات العقدية والفقهية، والإمام الحسين عليه السلام في كل ذلك يكشف لنا عن مكامن الضعف والعجز في هذه الأمة وما اعترى هذا الدين من التحريف لمضامينه والتزوير لحقائقه.

ونحن في دار الإمام الحسين عليه السلام مع تقديرنا لكل الجهود التي بذلت وما زالت تبذل لقراءة تراث الإمام الحسين عليه السلام نحاول أن نسهم مع الآخرين في قراءة تراث الإمام الحسين عليه السلام بعيون رسالية معاصرة نتلمس من خلالها مكامن الخلل والضعف في مسيرة الأمة، ونسترشد من خلال هذا التراث حل مشاكلنا وأزماتنا.

ويسعدنا أن يكون الإصدار الثالث من أعمالنا نهج الإصلاح قراءة في الخطاب الإصلاحي للإمام الحسين عليه السلام، وهو للكاتب سماحة السيد محمود الموسوي.

نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح.

المقدّمة

في زمن الغربة عن القيم الإلهية في تحديد معالم الخطاب الإصلاحي، واللهث وراء محدّدات غربية غريبة عن قيم الدّين وأصوله، تقفز أمامنا أهمية العودة إلى التاريخ المقدّس الذي يمثّل مرجعية معصومة من الضلالة ومن حيرة الجهالة، وهادية إلى سبل الرشاد، فلقد غاب لدى البعض مبدأ الإستلهام الحقيقي والمباشر من ذلك التاريخ الذي يمثله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، عندما حاولوا تقديم خطاب إصلاحي جديد ضمن تحولات سياسية واجتماعية جديدة في واقعهم وراهنهم، فظّنوا أن إملاءات الواقع تحتّم عليهم أن يغيّبوا أو يبتعدوا عن ما يثير الآخر، حتى لو كان ذلك المغيّب والمستَتَر من أصول التفكير في ثقافتنا الإسلامية، خصوصاً على مستوى المرجعية الفكرية التي تحدّد معالم خطابنا وملامحه، وترسم خصوصيته، بل وتعطيه شرعيته.

إن تراثنا المعصوم هو الذي يُقرأ به الواقع وتقرأ من خلاله الأفكار البشرية للآخرين، وعلى أساسه تقيّم، وليس العكس، بأن نقوم بقراءة قيمنا المستبطة من تاريخنا من خلال ما جاء به الآخرون

واستنهجوه، لذلك فإن على الذين شرّقوا وغرّبوا بحثاً عن خطاب جديد أن يستفيقوا من غفوتهم المغلّفة بأغلفة التحديث والتجديد والمعاصرة وما إليها، وعليهم أن ينفضوا من فوق عقولهم أتربة الإنبهار بما جاء به الآخرون، ليستعيدوا ثقتهم بأنفسهم وبما آمنوا به.

فما دمنا قد آمنّا بالله رب العالمين، وقد أرسل لنا رسول صدق، وأئمة هدى، فعلينا أن نقتفي أثرهم وننتهج طريقهم، بشكل صريح فيما نؤسّس له، وفيما نرفع به بنايننا، وإلا نكون قد وقعنا في حبائل الشيطان الذي أضل الأعمال وأعمى القلوب وزيّن مساوئ الأعمال.

في إصلاح واقعنا المعاصر مهما اختلف وتلوّن وتوجّه، فنحن بحاجة إلى العودة الحقيقية إلى منابع الهدى ومرافئ النجاة، لأننا بحاجة إلى شرعية تعذّر أفعالنا أمام الله تعالى، قبل أن نكون بحاجة إلى شيء آخر، مع العلم باليقين أن الهدى والنجاة لا يمكن أن تنفكان عن الشرعية الإلهية، أليس الله هو الهادي، وكتابه المنزل فيه الهدى، ورسله من الأنبياء والأئمة هما الهداة المهديين! إذاً فلا خيار إلا التوجّه إليهم، في تحديد نوع الخطاب الذي ينبغي أن نتمثّله في حياتنا السياسية والاجتماعية وغيرها.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أنبأنا بأن على يمين عرش الله تعالى، مكتوب «إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»، والتاريخ يخبرنا بأن الإمام الحسين عليه السلام قد قام بنهضة تصحيحية وتقويمية

للإنحرافات التي أصابت الأمّة في سلوكياتها وللإنحرافات التي أصابت السلطة الحاكمة في إدارتها، فالهداية متمثّلة في نوره الذي ينتشر في آفاق الزمان والمكان معبّرةً عن قيم قد أسّست، ومبادئ قد رسّخت، لخطاب رام الإصلاح في كل شؤون الحياة، وقدّم أروع حركة نهضوية في التاريخ.

فمطلوب منّا كمؤمنين بالدين وبالقائمين عليه، أن نسعى لقراءة ذلك الخطاب بعين معاصرة في كل حين، ونستضيئ بنور الامام الحسين عليه السلام في خطابه الرسالي العظيم، فلنا فيه قدوة، كما قال هو عليه السلام: (فلكم فيّ أسوة).

السيد محمود الموسوي

بني جمرة، البحرين

كيف نقرأ الخطاب الحسيني؟

عندما نتناول الخطاب الحسيني بالدراسة والتحليل، و.. و.. عندما نسعى للاستفادة من ذلك الخطاب لكي نستلهم منه دلالات وإضاءات للاستفادة منها في واقعنا المعاصر، يبرز لنا إشكال مهم، وهو كيف نقرأ الخطاب الحسيني ونسقطه على واقعنا؟

لا شك أن هذا التساؤل مهم للغاية، وهو لا يقتصر على الخطاب الحسيني، بل ينتقل في شموليته إلى جميع النصوص الدينية وأحداث التاريخ الإسلامي وسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، إلا أن تسليط الضوء على المسيرة الحسينية والخطاب الحسيني سيكون أكثر وضوحاً، باعتبار أن ما قام به الإمام هو حدث أثار العالم وأثار فيهم زوبعة من التفكير في متناقضات الحياة، فلم تكن الثورة حدثاً روتينياً بل كان فيها من كل شيء أعمقه، حيث التضحية في أجلى صورها والجهاد في أبلغ معانيه ثم الشهادة في أصدق مراميها.

قد يقوم البعض بقراءة الخطاب الحسيني متأثراً بالحركة

المجتمعية التي يعيشها أو متأثراً بالحركة الفكرية التي يعاصرها بعقليته، وهذا الإتجاه ما يعبّر عنه البعض بتأثير الفهم للنص الديني من خلال التطوّر الحديث في العلوم الأخرى، فهذا الزعم لا شك يحتاج إلى دليل واضح للقائلين به، فقد وقعوا في إشكال كبير حيث ربطوا فهم النصوص الدينية والتاريخ بتطوّر الزمان والأفكار التي تنبثق منه وفيه، فإن التطوّر العلمي والمعرفي العام في العلوم الأخرى قد يكشف أسراراً لم تكشف من قبل في دلالات النص الديني والتاريخ الإسلامي، إلا أنه لا يعني أنه يجيّر عقولنا إلى فهم النصوص، فإننا نفهم الواقع من خلال فهمنا لحقيقة النصوص التي تسمي لنا الأسماء بمسمياتها الحقيقية، فهي تعطينا بصيرة عن حقائق الأشياء من حولنا، ليعطينا القيم التي يحكم العقل على أساسها، لا أن نجعل الواقع ومعطياته هو الذي يحدد لنا قيمنا ومعاني الأشياء من حولنا.

فمن خلال الفهم الذي يتأثر بتطوّر الأفكار البشرية في فهمه للدين، تأتي نوعية الاستنتاجات والدلالات التي يستخرجها الباحث من تلك النصوص والسير، وهذا ينطبق بشكل واضح على مسيرة كربلاء وطريقة فهمنا إليها، فقد يكون الفهم الذي فهم قبل مائتي عام قد تغيّر الآن وأصبحت كربلاء عبارة عن دلالات مختلفة، وهذا ما يتيح للمتناقضات أن تأخذ شرعنتها، وهذا ما يساهم في تعطيل بعد (القدوة) أو إضعافه باعتباره لا يشكّل فهماً له مصداقية حقيقية.

وفي قراءة الخطاب الحسيني على الخصوص يمكن للبعض أن يفهمه وفقاً للتحوّل الفكري أو متأثراً بهيمنة الفكر الغربي الذي يدعوا للديمقراطية كأفضل أسلوب في الحكم، فيحوّل إرادة الإصلاح التي أرادها الإمام الحسين عليه السلام وإرادة التغيير إلى إرادة مشروطة برأي الأكثرية، ولا نعلم ما هو تفسير القائل بذلك للخطابات العديدة للإمام الحسين عليه السلام والصريحة في إرادة الإصلاح والتغيير ولو بالنفر القليل.

وهناك نماذج كثيرة للفهم الخاطئ للخطاب الحسيني بشكل خاص، حيث يقوم البعض بقراءة ناقصة ومبتورة عن الهرم القيمي الديني الموستوحى من القرآن الكريم والمتسق مع سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من بعده عليهم السلام، والبعض يقوم بقراءة يحكّم فيها المنحى العقلي البحت لا بتطبيق القواعد العقلية العامّة والمتفق عليها، بل بتحكيم استحسانات يسميها أصحابها بأنها عقلية، ولكنها في ألأساس استحسانات الهوى والنفس، لذلك ترى كل من يميل إلى جانب يأخذ المسيرة الحسينية إلى جانبه، فمن يميل إلى المواجهة يغلّب جانب المواجهة في فهمه، ومن يميل إلى المسايرة تراه كذلك يغلّب ما يراه مناسباً..

إن أهم ما ينبغي للباحث والقارئ للخطاب الحسيني هو أن يتخلّى عن الهوى الذي هو عدوّ العقل كما في الروايات، وقد يدّعي الجميع بأنهم طلّقوا الهوى ثلاثاً، لذا ولضمان قراءة سليمة، فإنه ينبغي أن نبعد جميع تمظهرات الواقع واختلاجات الذات

وموروثاتها من دائرة البحث، فمقاييس الزمن الحاضر قد تكون مقاييس خاطئة فيما سيأتي من زمان، واستحانات العقل قد تميل مع النفس وتتحوّل بتحوّله، فهذه الأدوات ليست أدوات الفهم الصحيح لخطاب الإمام الحسين عليه السلام أو النص الديني بشكل عام.

إن طريقة الفهم التي قد يبلّغ لها البعض تحتاج إلى أن تشفّع بالأدلة القرآنية والنبوية وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، ولا يمكن أن نثق بقراءات استحسانية وإن أعجبت البعض أو ركنت إليها أنفسنا، فالفهم الذي يدعوا إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام هو ما كان متناغماً مع القرآن الكريم ومنسجماً مع السيرة النبوية وأهل البيت، وما كان مستوعباً غير مبتور من الحدث العام، وغير منقوص من كافّة معطياته، لذلك فإن الحاجة هي الرجوع إلى الحفر في الخطاب الحسيني بمنهجية بعيدة عن مؤثرات الأفكار المهيمنة، وبعيدة عن ركون النفس وتسويلاتها.

لذلك فإننا اعتمدنا في قراءتنا للخطاب الحسيني المبارك منهجاً متسقاً مع ما ذكرناه، ونلخّصه في التالي:

١- قراءة استيعابية لمجمل الخطاب الحسيني والمسيرة الحسينية، لتحاشي القراءة المجزوءة، لمعرفة سياقاتها في الخطاب العام، وللتفريق بين ما هو أصل وما هو استثناء.

٢- الإنطلاق من الرؤية المتكاملة لمنهج أهل البيت عليهم السلام،

فكما أن القرآن يصدّق بعضه بعضاً، كذلك مسيرة أهل البيت وخطابهم يصدّق بعضها بعضاً، لأنهم عدل القرآن الكريم.

٣- محاولة فهم الخطاب الحسيني وفقاً لحاكمية القيم العامّة للدين، وهذا النهج وإن لم يظهر بشكل جلي في مطاوي البحث إلا أنه المعتمد في عملية التفكير والبحث.

وفي الأثناء نقوم باسقاط البصائر المستقاة من حركة الخطاب الحسيني على الواقع، أو الإنطلاق من بعض الأزمات التي تعاني منها الحركة الإسلامية في بعض تفاصيلها في الوقت الحاضر.

الحاجة إلى الخطاب

«فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الداين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله والسلام».

عندما نريد أن نستلهم من الإمام الحسين عليه السلام الدروس والعبر، كونه قدوة المؤمنين وإمامهم المفترض الطاعة، لا يمكننا أن نتجاوز حادثة كربلاء، لأنها مثّلت المفصل الحقيقي بين الحق والباطل بوضوح تام لا لبس فيه، ولأنها كانت مرحلة الذروة للصراع المبدأي والأزلي بين قوى الخير وقوى الشر، وقد أوضحت كربلاء بكل تفاصيلها المعالم الأساسية لكل مواجهة بين الحق والباطل لكل مراحل التاريخ التي تلتها وستبقى إلى يوم القيامة كذلك، وستدوّي في مساحاتها في كل بقاع العالم، لينهل منها طالبوا الحق والحرية أسسهم ومبادئهم، لذلك قيل في الشعار المدوّي: «كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء»، شعار عبّر عن مدى اتساع قيمة (القدوة) في حياة المسلمين لكربلاء لتشمل كل الزمان من دون انقطاع، وتستوعب كل الأرض بلا حدود، وما ذلك إلا من صفات النور الذي يخترق الأمكنة والأزمنة، وأهل

البيت عليهم السلام هم النور وكلامهم نور، أوليس الامام الحسين عليه السلام (مصباح الهدى)!.

فمن أجل التشرّب بالفكر الرسالي الذي أبدعه الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ينبغي أن نستلهم المبادئ من الخطاب الذي رافق هذه الثورة الكبرى منذ انطلاقتها وحتى نهايتها، ذلك الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين عليه السلام في الناس بمختلف أصنافهم، وألقاه في الوقائع والأحداث المتلاحقة منذ بداية إمامته وحتى استشهاده الشريف.

الذي يدرس كربلاء يلاحظ بوضوح أن الإمام الحسين عليه السلام لم يهمل مسألة توضيح الخطوات العملية التي كان يقوم بها والمواقف التي كان يتخذها، بالكلام والخطب، وقد كان ذلك عبارة عن بث الوعي في الناس، لكي يكونوا أمام المعرفة المشفوعة بالبرهان، لأنه من الطبيعي أن ينقسم الناس إلى أقسام تجاه تلك المواقف الشجاعة والمفصلية، وبالتالي فإن ما سوف تحقّقه هذه الفكرة هو أن من يلتحق بركب المسيرة الحسينية المباركة سيكون التحاقه عن وعي ومعرفة وقناعة، فيكون بعد ذلك جديراً بأن يتصف بمواصفات الملتحقين بالإمام الحسين عليه السلام وسيكون جديراً بالثواب المترتّب عليه والنهاية الآخروية التي ستهدى إليه، كما أن معرفة الخطاب بوعي سيكون الإتجاه الرافض والمتخلّف عن المسيرة الحسينية كذلك جديراً بأن يتصف بمواصفات المتخلفين عنها، وسيكونون مستحقين للعاقبة التي تنتظرهم في

الآخرة، فالخطاب هو الذي يلقي الحجّة البالغة لكلا الإتجاهين الملتحق والمتخلف.

و لو قرأنا الخطاب الحسيني بهذا الخصوص، لوجدنا أن الإمام عليه السلام لم يتوقف لحظة عن إلقاء الخطب، أو كتابة الرسائل، فمنذ اليوم الأول للخروج قد أعلن أهداف المسيرة الحسينية برؤية شفافة، لتكون ماثلة أمام ركب المسيرة، وذلك عند خروجه من المدينة، وتحديداً عند لقائه بمروان عند محاولة الأخير تحسين صورة أمر بيعة يزيد في عين الإمام عليه السلام أجابه قائلاً:

على الإسلام السلام إذا ابتليت براعٍ مثل يزيد.. ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، فوالله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدّي فلم يفعلوا ما أمروا به، فابتلاهم الله بابنه يزيد زاده الله عذاباً»[1].

وقد أشار في خطاباته عليه السلام إلى أهدافه وهي طلب الإصلاح في أمة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإعادة المسلمين للإسلام، وبناء الوضع الاجتماعي المنهار.

وفي مكة بعد أن بلغته كتب أهل الكوفة التي تدعوه للمجيء إلى الكوفة ليكون لهم إماماً وحاكماً، فبعث لهم رسالة مع سفيره مسلم ابن عقيل، يخبرهم باستجابته وجاء فيها:

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام، ص ٢٥٧، الشيخ باقر شريف القرشي.

«فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الداين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله والسلام»[1].

ولّما عزم الإمام عليه السلام على الخروج من مكة متوجهاً إلى العراق، قام خطيباً فقال:

«الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملآن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص من يوم خط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين» وبعد أن أوضح للناس المقصد وما ستكون النهاية، دعاهم بقوله: «من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى»[2].

و إلى آخر أيامه في كربلاء عندما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن الإمام عليه السلام أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً فحمد الله

(١) / قادتنا كيف نعرفهم، للميلاني، ج٦، ص١٩٣
(٢) / قادتنا كيف نعرفهم، ج٦، ٦٩

وأثنى عليه ثم قال:

قد نزل بنا من الأمر... إلى أن قال ألا ترون إلى الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربه[1]..

الخطاب الإسلامي واحترام العقل:

بهذا نستنتج بأن الخطاب الحسيني كان مثالاً في احترام العقل وتزريق الثقافة والبصيرة التي تساهم في وضوح الرؤى للملتحقين، أمّا إذا قرأنا الواقع اليوم فإن التشخيص سيقودنا إلى أن هنالك نقصاً واضحاً واعوجاجاً كبيراً في مسألة الخطاب الاسلامي الذي تقدّمه الحركات الإسلامية والتجمّعات التي تسعى إلى إحياء معالم الدين، اقتداء بالإمام الحسين عليه السلام، فإن الاقتداء بأصل المبدأ والسعي لإقامة الحق ونشره شيء، وتمثّل الأسلوب الأمثل للوصول إلى الهدف شيء آخر، فالخطاب الإسلامي المعاصر بحاجة إلى أن يقتدي بالخطاب الحسيني في أساليبه، وفي احترامه للعقل المسلم، ليرتقي بالمجتمع المتلقي إلى ما ارتقى إليه أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، ليصلوا إلى مرحلة المشاركة الواعية في المشهد الحركي الإسلامي، فقد قال الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه بعد أن دنى وقت المجابهة:

أمّا بعد: فإنّي لا أعلم أصحاباً أو فى ولا خيراً من أصحابي، ولا

(١) الثقافة الحسينية، محمود الموسوي.

أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي خيراً، ألا وإنّي أظنّ يوماً لنا من هؤلاء، ألا وانّي قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم منّ ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً.

ولكنهم لم يتراجعوا عن نصرة الحق، وقد عبّر كل بطريقته عن مدى فدائه للدين وللإمام، لأنهم على وعي للمقاصد التي خرج من أجلها الإمام ومقتنعين بحقيقتها، لذلك فإنهم مستعدون لأن يبذلوا فيه مهجهم كما بذل هو مهجته في الله تعالى.

و لذلك فإن المجتمع الإسلامي كأفراد مدعوّ إلى أن ينفتح على الخطاب الحسيني ليعي أسراره التي صنعت عظمته، وليعي الأهداف الحقيقية التي كان يسعى إليها الإمام عليه السلام، لكي يضمن الإلتزام بها في شتّى مواقفه، حتى تلك المواقف التي تتطلب تضحية على أعلى المستويات.

بيان الحكمة من التحرّك:

ففي خطوة الرعاية الخطابية للإمام الحسين عليه السلام للمسيرة الحسينية، كان من ضمن أسسها وخصائصها التي يجدر بالحركات الإسلامية الإقتداء بها، هي بيانه عليه السلام للحكمة من خطواته وتحركاته التي كان يقدم عليها -ولا نقصد هنا الأهداف العامّة[1]-، لكي يكون للملتحقين وعي بما يقدمون عليه، ولكي يعلم الجميع مبررات تحرّك الإمام عليه السلام وإن لم يلتحقوا به، وهذه

(١) سيأتي الحديث عن الأهداف وحركتها في المجتمع.

القاعدة إنما هي قاعدة قرآنية كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

وعند قراءتنا للخطاب الحسيني نجد هذه الحقيقة متجلية فيه، كما في ردّه على الوليد بن عتبة الذي أراد أن يأخذ من الإمام البيعة ليزيد، أجابه الإمام موضحاً السبب من امتناعه عن البيعة قائلاً:

أيها الأمير! إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع لمثله[2].

وقد أوضح للناس في خطاب له قبل ذلك قبيل موت معاوية عن الحكمة من مطالبته الناس بنصرته، جاء فيه:

فإنكم [إلَّا] تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير[3].

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ٣٤٤.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ٣٣٧.

وهذا ما يدعونا إلى القول بأهمية تضمين الخطاب الحركي للخلفيات والحِكَم والمبررات من التحركات والخطوات والمواقف التي تتخذها القيادة والحركات الرسالية، فإن سياسة التعامل مع القاعدة بالأوامر المباشرة دون إعطاء العقل الإنساني أهميته، لا تجدي نفعاً، بل إن لها آثاراً سلبية على الحركات، تتمثّل في ردات فعل غير محسوبة، كما أن بعد الإنتماء الحقيقي القائم على المعرفة والعلم سيصبح مفقوداً، وسيكون أولئك التابعين مجرّد دوابّ يسمعون فيطيعون ولا يعقلون..

«فلا يجوز للحركة الإسلامية أن تعامل الناس كجنود عليهم تنفيذ الأوامر دون تخلّف. فهم ليسوا مجرد (براغي) في آلة يغيّر مكانها من شاء ويبدّل موقعها حيث يريد، ولا احجاراً في شطرنج يشكلها اللاعبون كيف يريدون.

يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام:

«ولا تقولن: إني آمر فأطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرّب من الغِيَر. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطان ابّهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكفّ عنك من غربك، ويضيء إليك بما عزب عنك من عقلك!

إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبّه به في جبروته، فإن الله

يذل كل جبار، ويهين كل مختال».

و من السهولة جداً أن يتعامل الإنسان مع الجوامد، يصنعها كيفما اتفق ويضعها أينما يريد، ويغيرها متى ما شاء، إلا أنه قد لا يستطيع مع الحيوان كذلك، وقد يضطر أحياناً للتنازل للحيوان، بغية الهيمنة عليه، فكيف إذا أراد التعامل مع أخيه الإنسان، وهو صاحب عقل مثله، وصاحب إرادة مثله، وله رغبات وطموحات، وحاجات مثله أيضاً، فهو إذن بحاجة لمراعاة إنسانته وهو يتعامل معه، وهذا ما يجب على الحركة الإسلامية القيام به»[1].

(١) رؤى في مسيرة الحركة الإسلامية، السيد هادي المدرّسي، ص ٣٨.

الخطاب ووعي الواقع

«أمّا بعد فإن الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وإني أريد أن أسأل عن أشياء فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني».

هنالك تجاذب كبير بين الواقع وبين الذين يطلقون الخطاب في الشأن العام من القادة والمتصدّين، فقد يتغلّب الواقع بما يحتوي من أحداث على القيادات وعلى المتصدين فيفرض بذلك شروطه عليهم، ويملي عليهم أفكاراً لا يستطيعون منها فراراً، فيتلّبس خطابهم بهواجس وهموم لا تعبّر بالضرورة عن القيم التي يحملونها في الأساس، وقد يتغلّب القادة على الواقع من ناحية فكرية من خلال استباق الحدث، الذي يتم عبر وعي الواقع ومراقبته، ليمكن لهم أن يشخّصوه ويعالجوه وفقاً للقيم التي يحملونها، وفي هذه الحالة يبقى الخطاب ناصعاً ومتفوقاً حتى لو كان مدّ الواقع كبيراً ويحتوي على انحرافات كبيرة ولم يؤثّر فيه ذلك الخطاب.

المحافظة على نصوع الخطاب أمر ضروري، لسببين:

السبب الأول: لكي لا يملي الواقع بما يكتنفه من سلبيات شروطه على المسار.

السبب الثاني: لكي يبقى الخطاب محمّلاً بصفاء القيم، ليبقى تأثيره متواصلاً ومخترقاً الأزمنة الأخرى.

و من مظاهر تغلّب الواقع على الخطاب هو ما نجده من تحوّلات كبيرة في نوعية الخطاب عند بعض المتصدين، الذي قد يصل إلى حدّ التناقض مع الخطاب الذي لم يشبه شيء من سلبيات الواقع.

و في المشهد التاريخي الحسيني، لم يكن الإمام الحسين عليه السلام متفاجئاً بواقعة كربلاء، لأنه كان يعلم علماً يقينياً بأن مصيره القتل على أيدي أولئك الظلمة، فقد أخبر بذلك الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من قبل، وكذلك لم يبق الإمام الحسين عليه السلام مكتوف الأيدي منتظراً ذلك المصير المكتوب عليه، وخطاباته التي ناقشت الوضع العام للمسلمين لم تولد بتولّي يزيد (عليه لعنة الله) مقاليد الحكم بعد أبيه، وإنما كان الإمام الحسين عليه السلام سابقاً لكل ذلك، وممهداً للتصدّي لأي انحراف عظيم يمكن أن يحصل بعد ذلك، فالإنحراف كان موجوداً، والظلم كان سائداً قبل عصر يزيد ابن معاوية إلا أنه كان بوجه آخر، مغلفاً بغلاف الدين كما هي السياسة التي اتبعها معاوية بن أبي سفيان.

لقد سبق الإمامُ الحدثَ وتغلّب على الواقع ولم يشب خطابه

شيء من شوائب الواقع المنحرف، لذلك نجد النتائج واضحة في خطاباته عليه السلام إلى آخر يوم من حياته، حيث كان الحق هو المحور، ومصلحة الأمة الإسلامية هي الأساس، وسواء استجاب الناس أم لم يستجيبوا لتلك النداءات، فإنها تغلّبت على الواقع وتخطّته لتنتقل إلى المجتمعات الأخرى والأزمنة الأخرى، راسمة بذلك منهاجاً في العمل الإسلامي من أجل إعلاء كلمة الحق.

قبل سنتين من وفاة معاوية ابن أبي سفيان لجأ الإمام الحسين عليه السلام إلى فكرة مهمة عبّرت عن تأسيسه لخطاب (الحق) الذي لا تتغيّر قيمه، ليكون بذلك ممهداً لخطوات مصيرية في المستقبل معتمدة نفس الأدوات التي استخدمت في هذا الخطاب، فقد لجأ الإمام إلى الإستفادة من موسم الحج الذي يجتمع فيه الناس من كل فجّ عميق في ضيافة الله تعالى وفي كنف رحمته، ليكونوا في رحاب الحق جلّ وعلى، مهيأين لاستقبال الخطاب الذي سوف يليقه الإمام عليه السلام وهو المعبّر عن الحق، فقد جمع بني هاشم رجالهم ونساءهم ومواليهم شيعتهم، والأنصار، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأبناءهم، والتابعين والمعروفين بالصلاح، فاجتمع في ذلك المؤتمر أكثر من ألف رجل.. فألقى الإمام عليه السلام خطابه الطويل فيهم، وقد احتوى هذا الخطاب على مجموعة من المقاطع، فبعضها كان وصفاً للواقع حيث قال:

«أمّا بعد فإن الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم وإني أريد أن

أسأل عن أشياء فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني».

وقد عوّل الإمام على مشاهدات الناس وأرجعهم إلى مراقبة الواقع في تصديقه، ولم يطلب منهم أن يصدقوه من غير هدى، فهو يتحدّث عن الواقع، فلابد للواقع أن يكون شاهداً.. رغم أنه الصادق المصدّق، حيث قال التابعون بعد ذلك: «**اللهم قد حدثنا من نصدقه ونأتمنه..**».

ومما احتواه الخطاب هو بيان معالم الدين وقيم السماء بصورة واضحة، وتذكير بآيات الله تعالى التي نزلت في أهل البيت عليهم السلام وبأحاديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التي بيّنت فضائلهم ومكانتهم، فيقول الصحابة: «**اللهم نعم قد سمعناه وشهدناه**». ثم أوصاهم الإمام أن يبلغوا خطابه إلى من يثقون به إذا رجعوا إلى ديارهم، ليكون ذلك حجة وتمهيداً لما يأتي من زمن يبرز فيه الطغيان بوضوح، ليستخدم بعد ذلك ذات الأدوات التي استخدمها من قبل وبنفس الصفاء من دون أن تكون لسلبيات الواقع أي أثر عليه.

و قد روى المؤرخون الخطاب على النحو التالي:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

أما بعد: فإن الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وأني أريد

أن أسألكم عن أشياء فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي، واكتموا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من أمنتموه ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون، فإني أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون، فما ترك الحسين شيئا أنزل الله فيهم من القرآن إلا قاله وفسره، ولا شيئا قاله الرسول في أبيه وأمه وأهل بيته إلا رواه، وكل ذلك يقول الصحابة: «اللهم نعم، قد سمعناه وشهدناه» ويقول التابعون: (اللهم قد حدثنا من نصدقه ونأتمنه) حتى لم يترك شيئا إلا قاله ثم قال: أنشدكم بالله إلا رجعتم وحدثتم به من تثقون به، ثم نزل وتفرق الناس على ذلك[1].

(١) الاحتجاج - الشيخ الطبرسي - ج ٢ - ص ١٩.

مرحلية الخطاب

إني لارجو أن يكون رأى أخي رحمه الله في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشدا وسدادا.

عندما تأخذ الحركة مدى زمنياً طويلاً في حركتها، ستكون أمام حقب زمنية متباينة، وهذا سيتيح للزمن أن يداول هذا الخطاب حيث سيلتقي بخطابات متتالية في طريق العمل،

في حال تفوّق الذين يلقون الخطاب على الواقع وسبقهم إياه سيتيح للزمن أن يداول هذا الخطاب، و من ثم فإنه سيلتقي بخطابات متتالية في طريق العمل (تبديل هذه العبارة كاملة بالعليا)، و بطبيعة الحال لابد أن تتوافق كل تلك الخطابات القديمة مع الجديدة في بعد القيم التي ينطلق منها التحرك، و هذا لا يتأتّى إلا بوعي و قناعة تامةّ للمشروع الذي يتنبناه الحركيون و الرساليون منذ البدء، في حال كهذه تبرز مسألة تغيّر المراحل الزمنية و تبدّل الظروف المحيطة، فما هو حال الخطاب في عملية تغيّر الزمان؟

الخطاب الحسيني أجاب عن هذا التساؤل بنوع من

الإحترافية، حيث أن الذي أطلقه هو إمام مسدّد من قبل السماء، فالإجابة هي أنه لا يمكن أن تتغيّر القيم بتغيّر الظروف والأزمان، فالقيم من الثوابت التي لا تتبدّل أبداً، أمّا القسم الذي يناله التحوّل فهو في الإستراتيجيات والتكتيك بملاحظتها للأساليب المتناسبة مع الوضع الراهن، فتعدد الخطاب لا يعني أن تتعدد محتوياته بشكل متناقض أو متضاد، ولكن التعدد هو في الأساليب مع الحفاظ على روح القيم المحركة والدافعة باتجاه العمل.

نجد تلك الحقيقة الرسالية في خطاب الإمام عليه السلام في عهدي معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، فإن العهدين مختلفان من حيث طبيعة تعامل الحاكم مع الدين ومع الناس، فالأول كان متلبساً بلباس الدين ومدعياً الصلاح، إلا أنه يخفي العداء للدين ولأهل البيت عليهم السلام ويستغلّ أموال المسلمين في مصالحه الشخصية، أمّا سياسة يزيد فهي المجاهرة بالفسق والعصيان والتلاعب الواضح بأموال المسلمين ومقدراتهم، لذلك نجد أن خطاب الإمام الحسين عليه السلام اختلف في العهدين من حيث الخفاء والعلن، والتلميح والتصريح، بما يتناسب مع الوضع في كلا الحالين، إلا أن القيم بقيت هي القيم والمقاصد هي ذاتها.

ينقل لنا التاريخ هذه الحادثة، أنه لما توفى الحسن بن علي عليه السلام اجتمعت الشيعة، في دار سليمان بن صرد، فكتبوا إلى الحسين كتاباً بالتعزية، وذكروا في كتبهم أنهم يوالونه ويرضونه لهم خليفة ويشكون إليه شنآن معاوية، ويسألونه الكتاب إليهم برأيه. فكتب

الحسين عليه السلام إليهم:

إني لأرجو أن يكون رأى أخي رحمه الله في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشدا وسدادا، فالصقوا بالارض، وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الاظاء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله.

يشير الإمام إلى الناس بأن عهد معاوية يحتاج إلى الخفاء والسر، إلا أن الإمام في ضمن ذلك يؤكّد على القيم والمبادئ ويشير إلى مكانة أهل البيت بشكل دائم، لأن هذا ما يتقصده بنو أمية فقد قال الإمام عليه السلام ذات مرة في مجلس معاوية:

أنا ابن ماء السماء وعروق الثرى، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالحسب الناقب والشرف الفائق والقديم السابق، أنا ابن من رضاه رضى الرحمان وسخطه سخط الرحمن)، ثم رد وجهه للخصم فقال: (هل لك أب كأبي أو قديم كقديمي ؟ فإن قلت لا، تغلب، وإن قلت: نعم تكذب)، فقال الخصم: لا تصديقا لقولك، فقال الحسين عليه السلام: (الحق أبلج لا يزيغ سبيله والحق يعرفه ذووا الالباب).

«فقد كان رأي الحسين ألا يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات.

وهذا يوحي لنا بأن حركة منظّمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين، وأن دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضن بهم الإمام الحسن عن القتل فصالح معاوية، وأن مهمة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم اتي حفل بها عهد معاوية انتظاراً لليوم الموعود.

وقد رأينا أن هذه الدعوة ضد الحكم الأموي قد بدأت بعد الصلح، وقد كانت في عهد الإمام الحسن تسير في رفق وهدوء، نظراً لأن المجتمع كان لا يزال مأخوذاً ببريق الحكم الأموي، ولم يتمثل بعد طبيعة هذا الحكم الظالمة الباغية تمثلاً صحيحاً. أما في عهد الإمام الحسين فقد ازدادت الدعوة عنفاً وشدّة واحتداماً، وأخذت تكسب أنصاراً كثيرين في كل مكان بعد أن أسفر الحكم الأموي عن وجهه تماماً، وبعد أن بدا على واقعه الذي سترته الوعود الجذابة والألفاظ المعسولة.

ولقد كان كل حدث من أحداث معاوية يجد صدى مدوياً في المدينة حيث الإمام الحسين، ويكون مداراً لاجتماعات يعقدها الإمام الحسين مع أقطاب الشيعة في العراق والحجاز وغيرها من بلاد الإسلام»[1].

فالإمام استمر في خطابه محافظاً على القيم ومبشراً بها، مع تغيّر في صياغة الخطاب بين فترة وأخرى، وبمرور الزمن وقبل

(١) ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص ١٢٠.

موت معاوية بسنتين لجأ الإمام عليه السلام لعقد مؤتمر منى في الحج وهو المؤتمر المعروف الذي دعا فيه الخواص وذكر لهم بصراحة الطغيان الذي مارسه معاوية، وأوصاهم بكتمانه وتبليغه إلى من يثقون به.

إذاً الخطاب في عهد معاوية، كان تبليغاً واضحاً للحق، وتنديداً سرياً بالممارسات الخفية، وحصر ذلك على الثقاة وأصحاب الشأن، إلى أن جاء عصر يزيد المتجاهر بالفسق والعصيان ليتحوّل الخطاب ذاته بنفس القيم، ولكن معتمداً التصريح في الغالب من دون التلويح، وحدّد المصاديق بالأسماء في حين أنه قبل ذلك اكتفى بالإشارات.. نلحظ ذلك في مقولة الإمام عليه السلام في عهد يزيد عندما خرج من المدينة وعند لقائه بمروان حاول الأخير تحسين صورة أمر بيعة يزيد في عين الإمام عليه السلام فأجابه الإمام قائلاً:

على الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه وقد رءاه أهل المدينة على المنبر فلم يبقروا بطنه فابتلاهم الله بيزيد الفاسق.

بل إن الإمام عليه السلام كان يعلن لمعاوية نفسه بالتجاوزات التي كان قد ارتكبها، خصوصاً في آخر عهده، ولم يقرّه على فعل أو سياسة هو منتهجها، كما يفعل بعض الذين يظنون أن الموادعة أو الصلح أو العمل السياسي بالممكن هو أن تقبل ما يقدّمه الحاكم

من جور وظلم، وتقرّ بشرعيته بغية مصلحة أخرى، كلا.. لم تكن تلك سياسة الإمام الحسين عليه السلام، لإنه حافظ على نظام القيم التي لا يمكن تجاوزها، وكما كان يخبر الخواص في السر بالسياسة الظالمة التي كان معاوية ينتهجها، كان يصرّح لمعاوية نفسه عن تلك التجاوزات وتلك الجرائم، كما جاء ذلك في كتب وخطب عديدة، كان منها عندما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لإبنه يزيد، قام الإمام الحسين عليه السلام خطيباً وقال فيما قال:

هيهات هيهات يا معاوية ! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، وأستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حق من إسم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لامة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوبا، أو تنعت غائبا، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي، تجده باصرا، ودع عنك ما تحاول. فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ! ما برحت تقدح باطلا في

جور، وحنقا في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثا، ولقد لعمر الله ! أورثنا الرسول K ولادة، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك، ورده الايمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم: كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية ! من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولى الابصار[1]...

وكان عليه السلام يصرّح لمعاوية بجرائمه من قتل المؤمنين، في كتبه:

ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ ! فقتلتهم ظلما وعدوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة جرأة على الله، واستخفافا بعهده. أو لست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة ؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ٣٢١.

نزلت من شعف الجبال.

فتجلّى هنا الاختلاف بين الخطابين، إلا أن المحتوى هو ذاته، فعندما يدعو الإمام للعمل الخفي فهو يريد بذلك مصلحة الدين في هذه المرحلة، وعندما يدعو عليه السلام لمرحلة أخرى هي مرحلة الثورة في العلن، فإنه يريد بذلك أيضاً مصلحة الدين وما فيه خير الناس، وهذا الإختلاف هو بحسب التقديرات الظرفية التي يحتاجها الواقع ويتطلبها الزمن ـ عبر التشخيص الحكيم.

في حركة الأهداف

إنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليهما السلام.

لابد لكل حركة من هدف تقصده وإن لم تبح به وتعلنه إلى الناس، وكل حركة لا تحدّد لها هدفاً واضحاً فهي ستكون خارج دائرة الانتظام، وستسير في اتجاه الفوضى والعبث، ومع ذلك فإن تحديد الهدف أو مجموعة الأهداف ليس كافياً، فهنالك مناهج يسلكها العاملون بشكل عام للتعامل مع أهدافهم، فقد أصبح من البديهي أن يحدد العقلاء أهدافاً لحركتهم، إلا أن الالتباس يقع في طريقة التعامل مع المجتمع بشأن الأهداف الحقيقية، وبكلمة أخرى فإن موضع البحث هو في حركة الأهداف المحدّدة سلفاً في الساحة المجتمعية.

فما هو الأسلوب الأمثل في تحريك الأهداف في الساحة المجتمعية من قبل المتصدّين؟

وبمعنى آخر كيف يمكن للحركات وللمصلحين أن

يطرحوا أهدافهم على الناس، وبأي صيغة ومن أي جهة؟

إن أول ما يعترضنا هو ما ينبغي أن نذكره كمقدمة أوليّة، وهو تحديد الهدف الأساس الذي تدور حوله الحركة وجوداً وعدماً، حيث أن زوال ذلك الهدف يؤدّي إلى انتفاء الحركة ليحل محلها السكون، ومع وجود مبرراته تتحرك على إثره الأفعال، فإن البعض قد لا يلتفت إلى هذه الحقيقة الهامّة، فتراه يسير على أي حال وإن تبدّلت الظروف والمقتضيات والدواعي، أو قد يقوم البعض بحركة عكسية من ذلك، فيقومون بالتنازل والتوقف حتى مع وجود المبررات التي وضعوها لإنفسهم كأهداف ومقاصد ينشدونها، فتضيع البوصلة من الحركة برمّتها، كل ذلك نتيجة عدم التفريق بين ما هو أساس وما هو فرع في الأهداف والأسباب.

في المسيرة الحسينية يجد القارئ أن هنالك مجموعة أسباب دعت الإمام الحسين عليه السلام للقيام بالثورة، وتلك الأسباب هي التي رسمت الأهداف في نهاية المطاف، إلا أنه ليس كل ما ذكره الإمام يعتبر سبباً رئيساً وباعثاً وحيداً على النهوض، بل هناك أهداف رئيسية حاكمة وموجِّهة لبقية الأهداف الفرعية، فمثلاً دعوة أهل الكوفة إلى الإمام (أن أقدم إلينا..) بكتبهم الكثيرة التي أرسلوها للإمام، لم تكن من ضمن الباعث الرئيسي للحركة، وكذلك رفض مبايعة يزيد والتخلّص منها، ليست هي السبب الرئيسي لقيام الإمام عليه السلام، وإن كانت من ضمن الدوافع التي

سرّعت بقيام الإمام، بل كانت هنالك أمور أهم من كل ذلك وأسباب مثّلت الأهداف الكبرى للمسيرة، فلذلك فإن انتفاء أحد ذينك الأمرين لم يثن الإمام عن مسيره، كما أشار إلى ذلك بعض المحققين من أن الإمام قد تلقّى مجموعة من النصائح والمشورات لكي يتخلّص من بيعة يزيد، كالتي ذكرها محمد بن الحنفية، بأن يذهب إلى مكة ويدعو الناس إلى بيعته فإن أبو، فيذهب إلى اليمن لأن فيها محبي أبيه الإمام علي وأخيه الإمام الحسن عليهما السلام، وإلا فإن عليه أن يتنقّل من دولة إلى أخرى إلى أن يقضي الله بين الإمام وبين القوم الفاسقين على حد تعبير محمد بن الحنفية، إلا أن الإمام لم يستجب لهذه الأفكار وفضّل الذهاب إلى الكوفة..

وحتى بشأن كتابة أهل الكوفة إلى الإمام عليه السلام فقد أنكر البعض أنّه وجهها للإمام، وسكت البعض قهراً، وانقلب آخرون، وقد اكتشف الإمام هذه الحقيقة مبكّراً وهو في طريقه إلى الكوفة قبل أن تحط الرحال في أرض كربلاء، إلا أن الإمام عليه السلام لم يكترث لذلك ومضى للقيام بمهمّته الأساس، وهذا المضي كانت تحرّكه الأسباب الحقيقية والكبرى التي لم تنتف ولم تنقشع.

لقد كانت الأهداف الأساسية لحركة الإمام عليه السلام هي ما ذكره مكتوباً في كتابه إلى أخيه محمد بن الحنفية، بعد أن حمد الله وأثنى عليه حق ثنائه، والتي تمثّلت في (طلب الإصلاح في أمّة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، حيث جاء في الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين عليه السلام يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليهما السلام، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين، وهذه وصيتي يا أخي إليك وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب[1].

فإن الهدفين الأساسيين كانا قائمين، حيث أن اعتلاء يزيد سدّة الحكم تعني أن يندثر ما تبقى من معالم الدين الذي جاء به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ويعني أن ينقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً، كل ذلك بسياسة يزيد المتغطرسة التي تحكم بالحديد والنار وتعيث في الأرض فساداً.

النتيجة التي نخرج بها، هي أن الأهداف لابد أن تكون

(١) العوالم، الإمام الحسين عليه السلام – الشيخ عبد الله البحراني – ص ١٧٩.

واضحة للحركيين، وأن هنالك فرقاً بين الأسباب الرئيسة والأسباب الفرعية، لذلك فإن قوّة التحرّك تحكم بالأصل والأساس لا بالفرع، ولا ينبغي تنزيل الفرعيات منزلة الأساسيات، لكي لا يترتّب على انتفائها توقف الفعل الحركي.

وهذه الأهداف هي ذاتها التي ذكرها الإمام قبيل وفاة معاوية في منى ضمن خطابه، حيث قال:

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك، فإنكم [إلّا] تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير[1].

وهذه المقدّمة هي مقدّمة أساسية لمعرفة الإجابة على التساؤل المطروح حول حركة الأهداف وتداولها من قبل المتصدّين في الساحة المجتمعية أو في الخطاب الجماهيري.

نحو منهجية ثابتة للخطاب:

الخطاب الموجّه للمجتمع والذي تعتمده الحركات ليس من

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ٣٣٧.

صنيعة القادة في بعده القيمي ولا يتّجه نحو ما تتجه إليه شعورهم واستحساناتهم أو حتى أفكارهم الخاصّة، فلا بد للخطاب من منهجية واضحة وذات شرعية لدى المتلقّي لذلك الخطاب، من دون أن تتعلّق بذوات وشخصانيات، وإنما تتعلّق بمبادئ هي محل تسالم الجميع وهي التي تمثّل في نهاية المطاف الحق، وهو مقياسه الثابت، وهنا ونحن في المجتمع الإسلامي فالمرجعية الأساس هي مرجعية الدين الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنّة المطهّرة في صياغته، وعندما يخلوا الخطاب من الشرعية في مرجعيته فسوف يكون لعبة في أيدي الرؤساء يميل في كل حين مع ميول كل شخص منهم.

والأهداف التي يعتمدها مطلقي الخطاب الحركي لابد أن تحكم بهذا القيد وتعزّز به، لكي لا يسمح للحركة بالإنحراف عن أهدافها الأساس، ولكي تنال حظّاً من الإقتناع والمقبولية في المجتمع أو لا أقّل فهي تلقي الحجة البالغة على من يتخلّف، وهذه الخطوّة من الممكن أن تعطي انطباعاً متفهماً لدى الآخرين.

إن الإمام الحسين عليه السلام كان يشير إلى هذه المسألة وأهميتها بشكل دائم عند تركيزه على المرجعية القرآنية ومنهجية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في خطاباته المتكرّرة، وذكرها بشكل خاص بعدما كتب له أهل الكوفة ليكون لهم إماماً وحاكماً، فبعث لهم برسالة مع سفيره مسلم بن عقيل (رضوان الله تعالى عليه)، يخبرهم باستجابته وجاء فيها ـ كموضع للشاهد ـ:

فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب القائم بالقسط، الداين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله والسلام.

في هذه الرسالة أسّس الإمام للضوابط التي ينبغي أن تتوفّر في القادة والأئمة، وهي الإيمان بالدين الإسلامي، وتحكيم القرآن الكريم، والمواصفات الذاتية للقادة وهي التي نذرت نفسها للعمل في ذات الله، فبهذا يمكن للمجتمع أن يمتلك المقاييس التي على أساسها تؤسس الأهداف وتتحرك المسيرات، وهذا الأمر يترك للعقل أن يقارن بين ما يسلكه يزيد بن معاوية من فساد وإفساد، وما يسلكه الإمام في طريق الله تعالى من أجل الإصلاح، فيسدّ الطريق على كل أصحاب ادعاء بأن أهداف الإمام ونهجه لا يمثلان الحق، ويلقي الحجة البالغة على الناس، ولو بعد حين، ويدمغ بهذه المنهجية أصحاب تلك القاعدة التي تقول: «سيدنا يزيد، قتل سيدنا الحسين»!

فإن الإمام الحسين عليه السلام «كان يحاول في ثورته أن يعيد قيم الإسلام الحقيقية، ولذلك فإنه يطلب من الناس أن يتبعوه فيما إذا وثقوا بأنه يمثّل الحق، وينطلق من أجله:

فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق.

فهو لا يطالب أحداً أن يتبعه لارومته، لقرابته من النبي، لكبر سنّه، لأنه من قريش، لجهاده السابق، فكل ذلك قيم طيّبة

وشرف وكرامة، ولكنها ليست مقاييس للحاكم، وإنما (الحق) هو المقياس: فقبوله كحاكم إنما يكون بقبول الحق)[1].

هذا في جانب التأسيس للخطاب لكي يكون عند الناس وعي المقاييس بمن يمثّل الحق دون سواه، أمّا من جانب الفعل والممارسة فالإمام عليه السلام كان حريصاً على أن يشفّع خطاباته بما يعززها ويبرهن على صدقها من الآيات القرآنية، ومن أقوال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التي سمعها الناس، وكان يذكّر بمكانته كإمام يمثل المرجعية في ذاته من خلال ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو بلغهم قوله في فضل الإمام ومكانته، فهو الذي كان يكرّر قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وهو الذي كان يقول:

«أسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب..».

وكان يكرر:

«سمعت جدي رسول الله يقول..».

---

(١) الشهيد والثورة، هادي المدرّسي، ص ٤٧.
(٢) القصص: ٨٣.

«وقد أشار في خطابه عليه السلام أنه يحذو حذو جده صلى الله عليه وآله وسلم وأبيه عليه السلام، لأنه الامتداد الإلهي للإمامة، إذ قال في خطابة إلى أخيه محمد ابن الحنفية:

إن الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور»[1].

وفي هذه الكلمات حدّد الإمام موضعه من الدين الذي جاء به الرسول الأكرم وهو موضع المؤمن به كما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أردف قائلاً:

إني لم اخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً. وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله وسلم [2]

جاءت هذه الكلمات تعبيراً عن المنطلقات التي انطلق منها في ثورته، وما ذلك إلا تعزيزاً وتكميلاً لمسيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ولو تصفحنا تاريخ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في ذات الموضوع الذي يتحرك في دائرته الإمام الحسين عليه السلام وهو مجابهة الفساد والمفسدين في الأرض، لوجدنا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى

---

(١) قادتنا كيف نعرفهم، آية الله العظمى السيد محمد هادي الميلاني، ج٦، ص٥٦

(٢) قادتنا كيف نعرفهم.

سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»، وقد أشار الإمام الحسين في إحدى خطبه إلى هذا الحديث وقال إني سمعت رسول الله يقول: من رأى منكم سلطاناً جائراً.. إلى آخر الحديث.

بل وقد كان الإمام عليه السلام طوال حياته يروي عن جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أحصى بعض المؤرخين بعضاً منها، وهنا ننقل قبساً منها:

١ - قال عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه».

٢ - قال عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

٣ - قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة (أو قال تصيبه مصيبة) وان قدم عهدها فيحدث لها استرجاعا إلا أحدث الله عنه ذلك، وأعطاه ثواب ما وعده عليها يوم أصيب بها».

٤ - قال عليه السلام: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها».

٥ - قال عليه السلام: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من

يطع الله يرفعه، ومن يعص الله يضعه ومن يخلص نيته لله يزينه، ومن يثق بما عند الله يغنيه، ومن يتعزز على الله يذله»[1].

فهنا يتمثّل الإمام الحسين قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً»، حيث جعل امتداد الحسين من امتداد النبي، وأهدافه هي إحياء الرسالة، وأن للإمام الحسين عليه السلام تمثيلاً إلهياً هو امتداد الرسالة، فيكون حبه مدار حب الله للناس وعدمه[2].

لذلك فإن القبول بالأهداف ووعيها من قبل المجتمع يرجع لما تحمله تلك الأهداف من قيمة معبّرة عن الحق، لا معبرة عن كاريزما الشخصية القيادية، أو المؤثرات الأجوائية أو العواطف الجوفاء، من أجل ذلك يقف الإمام الحسين عليه السلام بكل قوّة وثقة ليقول:

فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا صبرت حتى يقضي الله بيني وبين وبين القوم بالحق ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين[3].

فالإمام يرجع القبول به لقبول الحق، ولا يبالي بحظوة دنيوية فإنه عليه السلام يحتسب أمره عند الله تعالى منطلقاً من إيمانه بالآخرة

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي.
(٢) الثقافة الحسينية، محمود الموسوي،ص ٧٥.
(٣) العوالم، الإمام الحسين عليه السلام – الشيخ عبد الله البحراني – ص ١٧٩.

وبعدل الله تعالى يوم ﴿**يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[1].

أمّا النتائج التي حصدها الإمام من تأسيس أهدافه وفقاً للمرجعية الشرعية، هي:

١- ضمن أصحاباً أوفياء بذلوا حياتهم من أجله.
٢- ألقى الحجة البالغة على المتخلفين.
٢- أشعل الثورات بعد مقتله مهتدية بنور أهدافه الرابانية.
٤- كانت تلك الخطابات المؤصّلة مصدر هداية للباحثين عن الحقيقة في معرفة الحق من الباطل، ومعرفة أهل الحق وأهل الباطل.
٥- وضع قاعدة المرجعية الإلهية في بيان صدقية الدعاوى وشرعية التحرّك لكافة الحركات الرسالية.

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.

المستوى الثقافي للمجتمع

قد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا.

هل يمكن أن تتحرّك الحركات في خطابها وتنطلق في سبيل تحقيق تطلعاتها من غير أن تكون في تفاعل إيجابي مع المجتمع في مستوياته الثقافية المتنوّعة؟ أو من دون أن تكون على معرفة بأساليب التعاطي مع مختلف المستويات في المجتمع؟

بالطبع لا يمكن ذلك، فالمجتمع بحكم تعدّده الفردي وتعدّده في المجاميع والدوائر الثقافية التي ينهلون منها لا يشكّل وحدة واحدة صمّاء، فهناك تعدد ثقافي سببه التنوّع في المشارب، لذلك فإن المتحركين والماسكين بأزمة الحركات الإصلاحية والتغييرية لابد أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم، ويضعوا لها خطّة في التعامل الخطابي.

هذا فضلاً عن الإهتمام قدر الإمكان بإيصال الخطاب بتنوّعه الذي يتنوّع وفقاً للمستوى الثقافي للمجتمع، إلى أوسع

قدر ممكن، والإستفادة من كافّة المنابر الإعلامية، فهذا من شأنه أن يحقّق التفاعل الإيجابي في المجتمع مع الخطاب الحركي.

فمن المشكلات التي يعاني منها الخطاب الإسلامي المعاصر في كثير من الأحيان، هي أنه لا يتضح لديه التفريق بين القيمة الأساسية للخطاب، وبين مفهومه لمراعاة الواقع الاجتماعي واختلاف الأفهام، فيلجأ إلى سلوك احترازي مملوء بالهواجس ليعبّر عن فكرته بمغايرة عن المطلوب حيناً، أو الاضطرار إلى الإخفاء والسكوت عن المقاصد حيناً أخرى، أو التعبير عن الأفكار بأسلوب واحد لا يتناسب إلا مع فئة معينة كالنخب مثلاً أو الإكتفاء بالخطاب الجماهيري العام وما شابه ذلك، ونتيجة لهذه السياسة التي لا تراعي المستوى الثقافي المتنوّع في المجتمع في خطابها، ولا تغتنم كل فرصة لتوسعة إطار الخطاب إجتماعياً، قد وجدنا في التاريخ القديم والحديث من الحركات والشخصيات العديدة التي قد غابت مقاصدها الحقيقية عن قراءة الناس في الوقت الحاضر، وتسبب ذلك في عدم وضوح توجهاتها وعدم معرفة حقيقتها، فضلاً عن التشويش الفكري في وقتها التي كانت فيه.

الأصل الفكري لمسألة التفاعل الإيجابي للخطاب في المجتمع مع مراعاته لتعدد المستويات، مستلهم من الخطاب الحسيني في المسيرة المباركة، فنلاحظ في البدء أن الإمام الحسين عليه السلام منذ بداية انطلاقته من مكة المكرّمة وحتى كربلاء، أنه نزل في عشرين منزلاً كمّا عدّها المؤرخون، وقد زاد بعضهم على ذلك،

فكما هي العادة لدى المسافرين لمسافات طويلة أنهم ينزلون منازل استراحة بين الفينة والأخرى، فهذه المنازل التي نزلها الإمام لم تكن لمجرد الإستراحة من تعب السفر، بل كانت عبارة عن مواطن ومحطات لنشر المبادئ والقيم وتوضيح الغايات لأكبر قدر ممكن من الناس، فقد اغتنم الإمام عليه السلام الفرص وعبّر عن رأيه في كل ما يريد وأوصل خطابه لمساحة واسعة من الناس، وقد نقل المؤرخون مجموعة خطابات ألقاها الإمام بعد إقامته للصلاة أو في رسائل جوابية، أو توجيه إلى فئة أو أفراد، لذلك فإن خروج الإمام قد اشتهر آنذاك شهرة واسعة، وقد كان من بعض الشخصيات أن اجتهدت للخروج إلى الإمام عليه السلام لإقناعه بالعدول عن رأيه، وبعض وجّه رسائلاً وخطابات لتثنيه عن مسيرته، والمفاد من هذا التوسّع هو وصول خبر المسيرة إلى الآفاق البعيدة.

أمّا الأسلوب وطريقة التعامل مع أولئك الذين كانوا في المنازل المختلفة أو مع القادمين إليه فيها، فكانت تحكمه القاعدة النبوية التي أطلقها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنا معاشر الإنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»، أي وفقاً لمستواهم الثقافي ووفقاً لما يحتاجونه من توجيه في سبيل تعريفهم بكنه المسيرة الحسينية، بناء على قاعدة تعدد الأفهام واختلاف المستويات الثقافية في المجتمع، والقارئ للخطابات والحوارات التي دارت في مجموع المنازل التي نزل بها الإمام سيلاحظ اختلاف التعابير واختلاف المعالجة لفكرة هذا ولفكرة ذاك، هذا فضلاً عن النكات التفصيلية التي اتسم بها الخطاب واختلافه من البداية وحتى النهاية..

فقد كان الإمام يعلّل خروجه للبعض بأنه استجابة المبدأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب الإصلاح أمام الفساد القائم، وتارة يذكر كتب أهل الكوفة، وتارة يذكر للبعض الرؤى التي رءاها للرسول الأعظم تأمره بالمضي، وتارة يذكر للبعض بأن الموت لا مفر منه في هذا الرحلة، وتارة يذكر المصيرين إما الموت وإما الحياة العزيزة، بل قد يكون الخطاب شاملاً ومستوعباً كالذي ألقاه الإمام عليه السلام في أصحابه والمصاحبين للحر الرياحي، وحيناً أخرى يعالج الإمام المشكلة التي تكتنف خطاب الآخرين في مفاهيمهم، كما كان ذلك عند ردّه على خطاب من عامل يزيد في مكة بجهود عبد الله بن جعفر بأنه سيطيه الأمان، فصصح الإمام له مفهومه عن الأمان، وهنا أمثلة من تلك الإجابات:

التفريق بين الحق والباطل:

عندما طلب الوليد بن عتبة من الإمام الحسين عليه السلام أن يبايع يزيد على إثر كتاب جاء من يزيد بأخذ البيعة من الإمام، علّل الإمام عدم قبوله البيعة ببيان المفارقة بينه وبين يزيد، ولعل ذلك لإعتبار أن الوليد هو تابع ومستفيد من يزيد فأراد الإمام أن يذكّره بحقيقة يزيد، وما هو مقدم عليه من مخاطبة من يمثّل الحق،فقال له:

إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب

خمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع لمثله[1].

تعليل الخروج بالكتب:

في بداية خروج الإمام عليه السلام سمع كثيرون بعزمه ومضيّه، وعمد كل بطريقته وحسب ثقافته ووعيه ومرتكزاته أن يثني الإمام عن مواصلة المسيرة، إلا أن الإمام أبى ذلك وأجاب على كل واحد بمنطقه، ومن هؤلاء ما يرويه التاريخ في ابن عمر الذي كان يحمل ثقافة تبرّر عدم استلام أهل البيت للسلطة بأنهم أهل الآخرة كما كان رسول الله، حسب ادعائه، فأرجع الإمام سبب خروجه إلى أن هنالك حاجة ودعوة من أهل الكوفة عبر الكتب والبيعة له..

كان ابن عمر قدم المدينة فأخبر أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسير ليلتين – أو ثلاث – من المدينة فقال: أين تريد ؟ قال: العراق، و[كان] معه طوامير وكتب. فقال له: لا تأتهم. فقال: هذه كتبهم وبيعتهم.. فقال: إن الله عزوجل خير نبيه بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والله! لا يليها أحد منكم أبدا، وما صرفها الله عزوجل عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا. فأبى وقال: هذه كتبهم وبيعتهم. قال: فاعتنقه ابن عمر وقال: استودعك الله من قتيل[2].

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام – لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام – ص ٣٤٤.

(٢) المصدر، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

عدم إجابة المعاندين:

البعض قد يحتاج إلى إجابة من الجهة التي يطلب من الإمام من خلالها بعدم الخروج، ولكن الجاهلين الذين لا يرجون ردّاً، ولا ينتظرون إجابة، سوى الوصول إلى غايتهم الخبيثة، فإن عباد الرحمن يردّون عليهم بقولهم (سلاماً)، هذا ما حصل مع بعض رسل عمرو بن سعيد بن العاص:

لما خرج الحسين عليه السلام من مكة إعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص، عليهم يحيى بن سعيد فقالوا له: انصرف، أين تذهب ؟ ! فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعاً قوياً، ومضى الحسين عليه السلام على وجهه. فنادوه: يا حسين ! ألا تتقي الله؟! تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة ! فتأول الحسين عليه السلام قول الله عز وجل: ﴿**لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

تصحيح المفاهيم:

عبد الله بن جعفر خاف على الإمام كما يبدو من تحركاته عندما عرف عن نية يزيد بأن الأمر سيصل إلى القتل، فعمد إلى أخذ الأمان له، ولكن الإمام عليه السلام ردّ عليه بتصحيح مفهوم

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام – لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام – ص ٤٠١ – ٤٠٢.

الأمان، لكي تتسق حركة المرء بناء على الفهم الصحيح لتلك المفاهيم لا على الفهم الخاطئ لها:

قام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص فكلمه وقال: أكتب إلى الحسين عليه السلام كتابا تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البر والصلة، وتوثق له في كتابك، وتسأله الرجوع، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع، وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ويعلم أنه الجد منك. فقال عمرو بن سعيد: اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه. فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيذك من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأقبل إلي معهما، فإن لك عندي الأمان والصلة والبر وحسن الجوار، لك الله بذلك شهيد وكفيل، ومراع ووكيل، والسلام عليك. ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له: اختمه. ففعل، فلحقه عبد الله بن جعفر يحيى بن سعيد، فأقرأه يحيى الكتاب. وكتب إليه الحسين عليه السلام: أما بعد؛ فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنت نويت بالكتاب

صلتي وبري فجزيت خيرا في الدنيا والآخرة، والسلام[1].

المرتكزات الإنسانية

بعدما أثبت القوم الذين يحاربون الإمام الحسين عليه السلام أنهم لا يعيرون أي اهتمام لصوت الدين ولا لنداء العقل، فقد كفروا فعلياً بكل ما جاء به الإسلام الحنيف على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الإيمان بالله واليوم الآخر، فقد عمد الإمام على مخاطبتهم أثناء المعركة بالمرتكزات الإنسانية التي لا يخلوا منها أي إنسان..

ويحكم، يا شيعة آل أبي سفيان ! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحرارا في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عربا كما تزعمون[2].

(١) المصدر ٤٠٣.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ٦٠٧.

الحال الاجتماعي

الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون.

أمام الحركات الإصلاحية والمصلحين عموماً خياران في التعامل مع الحال الإجتماعي السائد، وخصوصاً أمام المشكلات الحقيقية التي تلمّ به، فإمّا أن يتغافلها ويؤدّي وظيفته المجرّدة من دون الإصطدام بمشكلات الواقع، وإما أن يواجهها ويتعامل معها بحكمة، فمن يتغافل المشكلات الاجتماعية هو في الحقيقة يبتلى بها وبعوائقها، لأنه يتحرك ضمن المجتمع المصاب بالأمراض الاجتماعية، وقد لا تنجو الحركة من الإصابة بتلك الأمراض، والذي يختار خيار المواجهة، وهذا هو الخيار الرسالي المسؤول، فإنه يحتاج إلى الحكمة، فإن الطاغية والظالم يسعى للإستفادة من مواطن الضعف عند الناس لكي يدخل منها للتأثير على أي حركة رسالية تروم الإصلاح والتغيير.

و نتيجة لذلك نواجه بعض الأحيان بعض الحقائق المرّة

في مسيرة العمل الإصلاحي لدى بعض الذين لا يراعون الحال الإجتماعي ولا يضعونه في حساباتهم من أجل المعالجة والتقييم، فيتم شراء الذمم، والضغط على الشخصيات من خلال التهديد بالفضائح الإخلاقية وغيرها، مما يؤثر سلباً على مسيرة الحركة وقد يؤدّي ذلك إلى انحرافها، فضلاً عن ضعفها وعدم تأثيرها الواقعي.

إن معرفة الحال الإجتماعي ووضعه في حسابات الخطاب يعتبر شرط من شروط التحرّك «فالعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»، فالخطوة الأولى هي التشخيص الواقعي والحقيقي لما يعانيه المجتمع من مشكلات، ثم التوجّه بمعالجات حكيمة تتناسب معها، أمّا ما قد يفهمه البعض من انفصال ما هو عمل سياسي عن العمل الإجتماعي والثقافي فهو محض وهم، لأن كل تلك الجوانب يؤثّر بعضها في الآخر إيجاباً وسلباً، وقوّة وضعفاً، وسعة وضيقاً، لما لها من اشتراكات في المفاهيم العامّة والأصول الفكرية، ولما لها من اشتراك في موطن التفاعل والتحرك، وهو المجتمع ذاته.

إن الإمام الحسين عليه السلام في مجمل حركته كان يقوم في خطابه بإشاعة المفاهيم الصحيحة في موازين الناس، فيذكّرهم بأن الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر، وأن الخير والأمان الحقيقي هو خير ألاخرة وأمانها، هذا بشكل مجمل، أمّا بشكل خاص في حدود واقعة الطف في كربلاء من المواجهة الفعلية، فإن يزيد وبن زياد

انتهزوا ضعف الناس أمام الوعود الدنيوية البرّاقة، فاشتروا الذمم ووجّهوا الناس لعبادة الدنيا وأثنوهم عن التفكير في الآخرة، هذا الواقع الذي حكاه بعض الأشخاص من الذين كانوا قادمين من الكوفة عند لقائهم الإمام الحسين عليه السلام في منزل يقال له (عذيب الهجانات) في طريق الكوفة، عندما سألهم الإمام عن الكوفة وأهلها قالوا: «أمّا أشراف الناس فقد عظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم يستمال ودّهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألب واحد عليك، وأمّا سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك..».

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن هذه الحقيقة التي شاعت في أوساط الناس عند نزوله بأرض كربلاء في الثاني من المحرم، بعد أن اقبل على أصحابه، فقال:

الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون[1].

وهذه الكلمة الشاملة هي تشخيص دقيق لما كان يعاني منه المجتمع آنذاك من أن الدين بالنسبة إليهم ليس أكثر من صور ومظاهر وألفاظ، خال من أي محتوى وسلوك وإيمان حقيقي، لذلك تجدهم ينساقون خلف المادّة والمنفعة الدنيوية، فإن كانت

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام – لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، ص ٤٣٢.

مع الدين كانوا معها، وإن كانت مع الكفر والطغيان كانوا أيضاً معها.

وكانت هذه الحالة متشخّصة بعمق وبوضوح في شخصية عمر بن سعد (عليه لعنة الله) الذي وعدوه بمنطقة الري، ليكون حاكماً عليها وهي ذات الثروة الهائلة، عندما جاء إلى كربلاء ليدفع الإمام عن مسيرته وبعد أن استقر به المقام مع عسكره في أرض كربلاء، أرسل إليه الإمام ليتحدّث معه، فاجتمع به الإمام مع بعض الخواصّ ليدعوه لنصرته فدار بينهما هذا الحوار:

قال له الحسين عليه السلام: ويلك يابن سعد أما تتّقي الله الذي إليه معادك أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي، فإنه أقرب لك إلى الله تعالى.

فقال عمر بن سعد: أخاف أن يهدم داري!

فقال الحسين عليه السلام: أنا أبنيها لك.

فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي،

فقال الحسين عليه السلام: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز.

فقال: لي عيال وأخاف عليهم.

ثم سكت ولم يجبه إلى شيء فانصرف عنه

الحسين عليه السلام وهو يقول: مالك ذبحك الله على فراشك عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله انّي لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلاّ يسيراً.

فقد حاول الإمام أن يعالج المشكلة الإجتماعية من خلال عمر بن سعد، بوصفه قائد لجيش عظيم، وشخصية لا يخفى عليها قدر الإمام عليه السلام، إلا أنه أبى ذلك فاستحق الخسران المبين، وكانت المسيرة الحسينية شاهدة على طغيان الحكّام وانحراف الناس من خلال قيمها التي بقيت خالصة بنورها إلى يومنا هذا.

و في خطبة للإمام عليه السلام قبيل المعركة وجهها للجيش الجرار الذي جاء لقتاله، وهم من يشكلّون مجتمع الكوفة آنذاك، جاء فيها:

تبا لكم أيتها الجماعة وترحا أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفا لنا في أيمانكم وحششتم علينا نارا قدحناها على عدوكم وعدونا فأصبحتم إلبا على أوليائكم ويدا عليهم لأعدائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم إلا الحرام من الدنيا أنالوكم وخسيس عيش طمعتم فيه من غير حدث منا ولا رأي تفيل لنا فهلا لكم الويلات إذ كرهتمونا وتركتمونا تجهزتموها والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف ولكن أسرعتم إليها كطيرة

الدبا وتداعيتم إليها كتداعي الفراش فسحقا لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان وعصبة الآثام ومحرفي الكتاب ومطفئي السنن وقتلة أولاد الأنبياء ومبيدي عترة الأوصياء وملحقي العهار بالنسب ومؤذي المؤمنين وصراخ أئمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون[1]..

(في هذه الخطبة حدثهم الحسين عن أنفسهم، وعن واقعهم، وعن زيف حياتهم، حدثهم كيف أنهم استصرخوه على جلاديهم ثم انكفأوا مع هولاء الجلادين عليه، هؤلاء الجلادين الذين لم يسيروا فيهم بالعدل، وإنما حملوهم على ارتكاب الحرام في مقابل عيش خسيس)[2]، وفي الخطبة بيان الواقع الإجتماعي المتردّي الذي استغلّه بنو أمية ودخلوا لهم من نواقصهم وضعفهم كمجتمع ينبغي أن يتحلّى بروح الدين وتسود فيه تعاليم الإسلام القويم.

(١) أعيان الشيعة – السيد محسن الأمين – ج ١ – ص ٦٠٢ – ٦٠٣.
(٢) ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، ص ١٤٤.

مناقبيات الحركة

ما كنت لأبدأهم بالقتال

من المشكلات الكبيرة التي واجهت الحركات الإسلامية وغيرها هي نفور بعض المنتمين إليها، وابتعادهم عن الحركة أو تخلّيهم عن ممارسة العمل الإصلاحي والتغييري، والأسباب متعددة في ذلك، إلا أننا نسلّط الضوء على سبب مهم لا يتصل بالأسس الفكرية بشكل أساس، بل يتصل بالمنحى السلوكي للقائمين على الحركة، سواء كان ذلك نابعاً من طبيعة الأفكار والرؤى التي تقوم عليها الحركة، أو هو نابع من المواصفات الذاتية لبعض القائمين على الحركة، فإن الإنسان بطبعه كريم ولا يقبل الإهانة أو الإنتقاص أو الإرغام، ويميل إلى السلوك الحسن، كما قال الله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1]، فإن هذه الأية ترسم الخط العام لسلوك القائمين على حركة

(١) آل عمران: ١٥٩.

الإصلاح والتغيير والدعوة إلى الله تعالى.

فإن الإختلاف في فكرة أو في أسلوب، تتيح إلى المختلفين أن يجتمعوا ليتحاوروا ويتبادلوا الرأي ويمحّصوه ليصلوا إلى قناعات مشتركة أو متقاربة، بل ومع الإختلاف فإن الكل يحفظ للآخر مكانته، أما سوء التعامل مع الآخرين، فإنه لا يتيح هذه المساحة من التقارب، فإن النفور هو أقرب طريق، لذلك فينبغي أن تحتل المناقبيات الأخلاقية لدى القائمين على الحركات، وخصوصاً الإسلامية منها، مكانة واسعة في طرقهم الإدارية وفي متبنياتهم الفكرية، لذلك جاء في الحديث: «**الدين المعاملة**»، بل وإن المناقبيات هي بمثابة دعوة للآخر بلباس عملي حيث تسع الحركة الناس بأخلاقها.

لا تخفى مناقبيات الحركة التي مارسها الإمام الحسين عليه السلام في مسيرته الكربلائية، على أي قارئ لتاريخها ولو كان قارئاً بسيطاً، فقد ظهرت تلك المناقبيات والسلوكيات المتأصلة بأصالة الدين والمستمدّة من نور النبوة، وهدي الإمامة، بوضوح وبانت في كل حركة تحركها الإمام عليه السلام، لتكون مناراً لبقية الناس وقدوة لهم في سائر محطات حياتهم، فذلك التعامل الحسن واحترام الإنسان وكرامته التي أكرمه الله بها هو منهج حياة كامل لا يرتبط بالحركة والتغيير وحسب، بل يشمل سائر التعاملات الحياتية المختلفة وبهذا يكون الإنسان المسلم رسالي في كل تحركاته بإعتبار أن السلوك الحسن هو بذاته دعوة إلى الله تعالى، ولا تقتصر المناقبيات

على الحالة الأخلاقية وحسب، بل تشمل الالتزام الدقيق بالمبادئ التي وضعها الإنسان لنفسه أيضاً.

من المناقبيات التي مارسها الإمام عليه السلام في مسيرته الكربلائية هي استقباله لآراء الآخرين بسعة صدر، فقد كان يستمع لكل من يخالفه الفكرة ولكل من يريد أن ينصح الإمام بحسب مفهومه، مع أن الإمام عليه السلام كان عازماً وعارفاً بجميع الملابسات الحركية، وكان لديه علم إلهي ونبوي وإمامي بأن يسير بهذا الإتجاه، إلا أنه تعامل معاملة الواقع مع الناس، فرحّب بطرحهم لآرائهم، وعمل على ردّها بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالصدّ وعدم الإستماع والرفض الخشن وما إلى ذلك من السلوك المنفّر، لذلك نجد أن كل من تعامل مع الإمام في رأيه لم ينفروا من شخصه، بل يعترفون له بالمقام الكبير، وتعاملهم كل بحسبه، فمن كان من طرف يزيد عليه لعنة الله، يخرج من عند الإمام مهزوماً بالرأي والحجة، ومن كان يريد النصح كان يخرج بمعرفة الحقائق الغائبة عنه، وبعض من كان يتحاور مع الإمام عليه السلام تراه يشترك مع الإمام ويفديه بدمه كالحر الرياحي الذي تحاور مع الإمام كخصم، إلا أنه اعترف إليه بالفضل ثم فداه بدمه بعد أن تاب إلى الله، وكمحمد بن الحنفية الذي كان يعترف للإمام بالإمامة إلا أنه حاول إبداء رأيه في اتجاه مسيرة الإمام، فكان بعد ذلك عين الإمام على المدينة، وكزهير بن القين الذي كان عثماني الهوى كما تذكر كتب التاريخ، قد التحق بعد ذلك بركب المسيرة الحسينية وأصبح من شهدائها الأبرار.

أما من نفر من نصرة الإمام عليه السلام فلم ينفر منه شخصياً، بل إما كان مغرراً بقوّة المناوئين، أو مشترى الذمّة أو من مُحِّضَ في الكفر والطغيان محضاً، لذلك بقيت السيرة الحسينية حتى مع هؤلاء، هي الشاهد الكبير على عظمة الإمام عليه السلام وبالتالي عظمة حركته.

ومن المناقبيات الحسينية وهي كثيرة، عدم ممارسة الإجبار في نصرته، حتى لمن اقتنع به منذ البداية والتحق بركبه، فإن التاريخ ينقل أن الإمام عليه السلام كان قد خيّر من يريد الإلتحاق به منذ البداية، ثم كان يكرر ذلك التخيير في الطريق عند نزولهم المنازل، ويكرّر ذلك كلما اقتربت المسيرة إلى مصيرها، ففي ليلة العاشر من المحرم وقف الإمام عليه السلام في أصحابه خطيباً ودارت خطبته حول محور التخيير بأن يتخذوا من هذا الليل جملاً، وهذه بعض النماذج فيما جاء من مناقبيات متنوعة:

استماعه للآراء:

عندما أشار عليه أخوه محمد بن الحنفيه، بأن يلجأ إلى مكة، ودار بينهم حوار، قال الإمام في ثنايا ذلك الحوار:

يا أخي جزاك الله خيراً، فقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا عازم على الخروج إلى مكّة، وقد تهيّأت لذلك أنا وأخوتي وبنو أخي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأمّا أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة، فتكون لي عيناً لا تخفي عنّي شيئاً من امورهم.

لا أبدؤهم بقتال:

من المناقبيات التي تحار لها العقول وتقف عندها الضمائر إجلالاً واحتراماً، بل ولا بد أن يسجلها التاريخ بحروف من نور، هي حرص الإمام الحسين عليه السلام على أن لا يبدأ القوم بالقتال، رغم مضيقاتهم له، ورغم معرفته بأنهم عازمون على قتله، ولكن لم يكن ليفعل فعلاً يضر بأهدافه وقيمه، حيث أراد الإصلاح، فلا يشوّش بأي فعل على هدفه الحقيقي، ولا يعمد على معاقبة الجاني قبل أن يرتكب جنايته، فإنه عليه السلام لم يبدأ القوم بالقتال، وليس في منهجيته أن يبدأ بالقتال أصلاً.. يقول الرواة:

لمّا أصبح الحسين عليه السلام وهو مع أصحابه في طريقه بعد قصر بني مقاتل نزل وصلّى بهم الغداة ثمّ عجّل الركوب وأخذ يساير بأصحابه يريد أن يفرّقهم فيأتيه الحر بن يزيد فيردّه وأصحابه، فجعل إذا ردّهم نحو الكوفة ردّاً شديداً امتنعوا عليه، فارتفعوا، فلم يزالوا يتسايرون كذلك حتّى انتهوا إلى نينوى... فأخذهم الحر بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية، فقال له الحسين عليه السلام:

دعنا ويحك ننزل هذه القرية أو هذه، يعني نينوى والغاضرية أو هذه يعني شفيّة، فأبى عليه الحر ذلك.

فقال زهير بن القين للحسين عليه السلام: إنّي والله لا أرى أن يكون بعد الذي ترون إلاّ أشدّ ممّا ترون، يابن رسول الله إنّ قتال هؤلاء القوم الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به.

فقال الحسين عليه السلام: ما كنت لأبدءهم بالقتال، ثم نزل[1].

وهنالك موقف آخر، هو أعظم من هذا، وهو في اليوم العاشر، ورغم معرفة الإمام الحسين عليه السلام بأنهم قد عزموا بالفعل على قتله ومن معه، إلا أنه التزم بذات النهج، حيث يروى أنه:

أقبل القوم يوم عاشوراء يجولون حول بيوت الحسين عليه السلام، فيرون الخندق في ظهورهم والنار تضطرم في الطب والقصب الذي كان القي فيه، فنادى شمر بن ذي الجوشن بأعلا صوته: يا حسين أتعجّلت النار قبل يوم القيامة؟ فقال الحسين عليه السلام:

من هذا كأنّه شمر بن ذي الجوشن؟ فقالوا له: نعم، فقال له: يابن راعية المعزى أنت أولى بها صليّاً، ورام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم فمنعه الحسين عليه السلام من ذلك.

---

(١) انظر أعيان الشيعة، ج ١، ص ٥٩٨، السيد محسن الأمين.

فقال له: دعني حتى أرميه فإنه الفاسق من أعداء الله وعظماء الجبّارين، وقد أمكن الله منه.

فقال له الحسين عليه السلام: لاترمه فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال[1].

الحوار حتى آخر لحظة:

لقد ثبّت الإمام الحسين عليه السلام قاعدة الحوار مع الطرف الآخر ولو كان عدوا، كأداة سلمية يلجأ إليها لإقناع الطرف الآخر بما يراه صحيحاً، حتى لو كان الظرف ظرف حرب ومواجهة، فقد عمد إلى إيصال صوته إلى المعسكر الآخر ليخبرهم بما يراه صحيحاً، وليبيّن لهم ما قد يكون خافياً عن البعض، كما قد حاور عمر بن سعد وهو قائد الجيش الذي أعد العدّة لقتاله، كما جاء في التاريخ:

أرسل الحسين عليه السلام إلى عمر بن سعد بعد وصوله وعسكره إلى كربلاء من يقول له:

أنّي اريد أن اكلّمك فالقني اللّيلة بين عسكري وعسكرك، فخرج إليه ابن سعد في عشرين وخرج إليه الحسين عليه السلام في مثل ذلك فلمّا التقيا أمر الحسين عليه السلام أصحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه أخوه العبّاس وابنه عليّ الأكبر وأمر عمر بن سعد أصحابه فتنحّوا عنه وبقي معه ابنه حفص وغلام له.

---

(١) أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٠٦، السيد محسن الأمين.

فقال له الحسين عليه السلام: ويلك يابن سعد أما تتّقي الله الذي إليه معادك أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي، فإنه أقرب لك إلى الله تعالى.

فقال عمر بن سعد: أخاف أن يهدم داري!

فقال الحسين عليه السلام: أنا أبنيها لك.

فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي،

فقال الحسين عليه السلام: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز.

فقال: لي عيال وأخاف عليهم.

ثم سكت ولم يجبه إلى شيء فانصرف عنه الحسين عليه السلام وهو يقول: مالك ذبحك الله على فراشك عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله انّي لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلاّ يسيراً.

فقال ابن سعد: في الشعير كفاية عن البرّ، مستهزءاً بذلك القول[1].

أخلاقيات المواجهة:

إن المواجهة مع العدو لا تعني أن تتعطل الأخلاقيات،

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩٩.

وأن ترفع الحقوق عن العدو، بل إن هنالك ما عرف بأخلاقيات الحرب، وقد التزم الإمام بكل دقة بهذه الأخلاقيات، برغم أن خصمه كان متفنناً في مخالفة تلك الأخلاقيات وتحطيمها، فيذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام لمّا التقى به الحر الرياحي مع جيش قوامه ألف رجل في عليه السلام أول مواجهة لمنعه من المضي في مسيرته، وثنيه عن تحقيق أهدافه، بان على الجيش العطش الشديد، وأنهكهم التعب، فأمر الإمام من معه أن يسقوا القوم، بل ويسقوا دوابهم، وقال الحسين لفتيانه:

اسقوا القوم، وأرووهم من الماء، ورشفوا الخيل ترشيفا. فقام فتيانه فرشفوا الخيل ترشيفا، فقام فتيه وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم وأقبلوا يملأون القصاع والأتوار والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فإذا عب فيها ثلاثا أو أربعا أو خمسا عزلت عنه وسقوا آخر، حتى سقوها الخيل كلها[1].

فالحركات الإصلاحية والتغييرية اليوم هي بحاجة ماسّة إلى أن ترتقي إلى مناقبيات الإمام الحسين عليه السلام في تعاملها مع المنتمين إليها ومع المختلفين معها، لتأخذ قبساً من جاذبية الحركة الحسينية العظيمة، لترتقي إلى أن تكون أفعالها وسلوكياتها متطابقة مع خطابها ومبادئها.

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام – ص ٤٢٩.

تواصل الخطاب

إن تواصل الخطاب يعني مواصلة المسيرة بنحو حقيقي غير وهمي، أمّا مواصلة المسيرة شكلاً أو اسماً من غير مواصلة الخطاب فهذا لا يعدّ من المواصلة الحركية ولا يعبّر عن امتداد حقيقي للحركة، لأن الخطاب هو المضمون الرسالي والقيمي للحركة ومن دونه لا يمكن أن تكون الحركة هي ذاتها، والإشتباه الذي قد يحصل لدى البعض هو الفكرة القائلة، أن تغيير الخطاب يعني التغاير في الحركة، فهذا القول قد يكون صائباً إذا كان التغيير قد مسّ المبادئ والقيم والأسس التي تسير عليها الحركة، أما أن يكون التغيير في الإستراتيجية والأسلوب المحكوم بظروف الواقع ومتطلباته، فهذا على العكس تماماً.. إنه يعتبر مواصلة وحكمة، ودليل حيوية، لأن المسيرة تحافظ على قيمها وتبثها كل حين، في قوالب متناسبة مع متغيرات الواقع، وحولاته.

يمكن أن نقسّم الحركة إلى أقسام ثلاثة بالنظر إلى حركة الخطاب ومواصلته، كما عبّر عنها أحد المفكرين، وهي (القيم، الإستراتيجية، التكتيك)، فإن التحولات الواقعية والحضارية التي تجري في العالم تستدعي القائمين على الحركة أن يقوموا

بصياغة خطاب يتناسب مع المراحل المختلفة في جانبين فقط من جوانب الخطاب وهما (الإستراتيجية والتكتيك) دون المساس ببعد (القيم) التي هي من الثوابت الدينية التي لا تتبدّل بتبدّل الزمان، وعلى هذه الرؤية يمكن أن نؤسّس مقولة أن الخطاب يتواصل بقيمه لا بشكله ومرحليته ولحظياته.

لذلك تبقى الأهمية الكبرى هي لتلك القيم التي يعمل من أجل إشاعتها الإنسان، فالظروف متحولة ومتغيّرة، والأشخاص لا يدومون، ومن هنا تبرز أهمية المحافظة على مواصلة الخطاب إلى الأجيال التي تلي، فمن لا يريد أن يصل خطابه إلى الآخرين بحجة أن زمنه مغاير لزمن غيره، هو ينظر إلى الجانب الشكلي والبعد الظرفي دون القيمي، وهذا شبيه بمن يعمل على إشاعة وتوسعة الخطاب بكل تفاصيله للأجيال الأخرى، في عملية جمود على الآليات والوسائل، فكلاهما يقعان في ذات الإشكال، وهو غياب فكرة أن القيم هي البعد الأساس في الخطاب لمواصلة المسيرة.

إن الإمام الحسين عليه السلام ضمن مواصلة مسيرته من جهة، وهو امتداد ومواصلة لمسيرة أخيه الإمام الحسن عليه السلام الذي كان مغايراً إليه في جهة الظرف السياسي والديني للمجتمع، فمن قام بمواصلة المسيرة الحسينية حاملاً خطابها هم ثلاث جهات:

١- السيدة زينب عليها السلام التي حملت لواء المسيرة وبلّغت مبادئها في كل بقعة تصل إليها، في جانبها الإعلامي الذي عرّف الناس بحركة الإمام وما جرى عليه من الظلم والقتل، وفي جانب

تبليغ المبادئ التي قاتل من أجلها الإمام في خطبها التي كانت تشبه خطب أبيها أمير المؤمنين عليه السلام.

٢- الأصحاب والأتباع الذين خرجوا من رحم المجتمع ونتاج الظروف التي خلقتها الثورة الحسينية، وقد حملوا شعار يالثارات الحسين، وحاروبوا الظلم وحملوا مشاعل الحرية والعمل الرسالي، ونصرة أهل البيت عليهم السلام.

٣- وأهم من واصل المسيرة في كافة أبعادها هم الأئمة من بعد الإمام الحسين عليه السلام، ابتداء بزين العابدين عليه السلام، فقد كانت المسيرة هي ذاتها في كل ظرف من ظروف الأئمة من أهل البيت، برغم اختلاف الأحوال، إلا أن القيم هي ذاتها التي يبلّغون لها، وهي ذاتها التي سيقوم بإرسائها الإمام الموعود المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) ليملأ بها الأرض قسطاً وعدلاً.

أمّا ما نستوحيه من عوامل مواصلة الخطاب في بعده القيمي، هي:

١- نوع التربية الإيمانية المؤسّسة على المبادئ،لا على الأشخاص أو المسمّيات أو غيرها.

٢- الرعاية الفكرية للمسيرة الحركية والرسالية، عبر إشاعة المفاهيم والإهتمام بثقافة المجتمع في وعيه للمسيرة.

٣- الإلتزام الحقيقي والعملي بالمبدأ النظري للقائمين على الحركات، ليكونوا تعبيراً ناطقاً وصادقاً ومرءآة صافية لما يدعون إليه.

٤ – نوع التوصيات المستقبلية التي يعمّمها الخطاب المعتمدة على المواصلة في الإرتباط بالأهداف الحقيقية، لا الأشخاص.

وكل تلك العوامل قد عمل بها الإمام الحسين عليه السلام وضمّنها خطابه الذي رافق المسيرة الحسينية منذ بدايتها وحتى آخر لحظاتها، كما بيّنا كثيراً منها.

المؤلّف

السيد محمود الموسوي

البحرين / بني جمرة

الموقع على الإنترنت

www.mosawy.org

البريد الإلكتروني

smamood@hotmail.com

info@mosawy.org

محرم الحرام ١٤٢٧هـ

الفهرس

المقدّمة ٧
كيف نقرأ الخطاب الحسيني؟..... ١١
الحاجة إلى الخطاب ١٧
الخطاب الإسلامي واحترام العقل ٢١
بيان الحكمة من التحرّك ٢٢
الخطاب ووعي الواقع ٢٧
مرحلية الخطاب ٣٣
في حركة الأهداف ٤١
نحو منهجية ثابتة للخطاب ٤٥
المستوى الثقافي للمجتمع ٥٣
التفريق بين الحق والباطل..... ٥٦
تعليل الخروج بالكتب..... ٥٧
عدم إجابة المعاندين ٥٨
تصحيح المفاهيم ٥٨
الحال الاجتماعي..... ٦١

مناقبيات الحركة ٦٧
استماعه للآراء..... ٧٠
لا أبدؤهم بقتال..... ٧١
الحوار حتى آخر لحظة ٧٣
أخلاقيات المواجهة..... ٧٤
تواصل الخطاب ٧٧
الفهرس..... ٨٣